

مجلد المساء

محفلة من تاريخ المجد في الأندلس

بقلم: سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

نظمت الغرفة التجارية والصناعية العربية البرتغالية منذ أسابيع مؤتمراً هاماً حول الحضارة الإسلامية في البرتغال . . وهذا الموضوع يثير أحاسيس المجد في نفس كل عربي ومسلم بقدر ما يثير أحاسيس الأسي . . أحاسيس المجد لحضارة استمرت تسعة قرون قدمت فيها للإنسانية كلها وليس للغرب وحده أروع وأبدع ما أنتجه العقل المسلم في جميع المجالات . وكانت حجر الأساس الذي قامت عليه حضارة أوروبا في عصر النهضة . بعد أن قضت أكثر من عشرة قرون في غياهب الفوضى والجهل والهمجية . ذلك أن الحضارات واحات من الإشعاع العظيم . تنتشر على ساحة الزمن منذ خرج الإنسان من غيابات العصر الحجري الحديث وحتى اليوم . وهي أشبه بالطرز الذهبية على ثوب الزمن الممتد تؤلف في مجموعها عطاءً للإنسان . يأخذ الحاضر منها من السابق . فيطور ويضيف ويبعد ويعطي لاحق في مسيرة متواصلة . ونحن هنا لا نستطيع أن نتحدث عن الحضارة الإسلامية في البرتغال فقط . فحضارة الأندلس كانت حضارة تشمل شبه الجزيرة كلها ولم تكن التقسيمات السياسية الحالية قد عرفت بعد .

لقد قضى المسلمون في الأندلس قرابة التسعة القرون من سنة ٦٤٣ ميلادية وحتى سنة ١٦١٠ ميلادية ولا يمكن لإنسان أن يدعي أن بإمكانه الإحاطة بتاريخ

تسعة قرون في عجالة المفروض فيها أن تكون مقدمة لهذا العدد . وسوف أكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الخصوصيات التي تفردت بها حضارة المسلمين في الأندلس، راجياً أن تلقى ولو بقعاً صغيرة من الضوء على تاريخ ماجد . وحضارة سامقة كانت بكل المقاييس الأساس الراسخ الذي قامت عليه حضارة عصر النهضة الأوروبية بل وحضارة العصر الحديث .

وأولى الملامح التي تطالعنا ونحن نتناول حضارة المسلمين في الأندلس هي أنها حضارة قدمت للإنسان أعظم ما توصل إليه العقل البشري في الفلسفة والأدب والطب والكيمياء والبصريات والرياضة والفلك . بل وفي الأخلاق والسلوك وفي نفس الوقت كانت هي الحضارة الوحيدة التي ظلمت ظلماً بيناً ممن استفادوا منها وشادوا على هديها . يتمثل ذلك في أن المصادر التي تستقى منها أبعاد هذه الحضارة كتبت بأيدي أعدائها وبأسلوب ينطوي على حقد عنصري بغيض . وقد أكد ذلك العلامة المستشرق الأسباني جاينجوس في مقدمة ترجمته لكتاب نفح الطيب بقوله : "إن ماريانا وأكابر المؤرخين الأسبانيين تحدوهم عاطفة بغض قومي عميق . أو نزعة تعصب ديني . وقد أبدوا دائماً أبلغ الاحتقار لمؤلفات العرب وأهملوا المزايا التي تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية . وآثروا أن تكتب تواريخهم من جانب واحد وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذي يطبع كتاباتهم أثر واضح . ذلك أن تاريخ أسبانيا في العصور الوسطى ما يزال معتركاً من الخرافة والمتناقضات " .

والأغرب من ذلك أن نجد عالماً أسبانياً من علماء العصر الحديث هو المستشرق سيمونيت يمجّد العمل الهمجي الذي ارتكبه الكاردينال خمّنيس مطران طليطلة بجمع الكتب العربية من المسلمين بعد سقوط غرناطة بقليل وقد بلغ عددها قرابة المائة ألف مجلد والاحتفال بإحراقها في ميادين غرناطة . وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع عدد من المؤرخين ممن يحترمون الحقيقة العلمية وعبر جهد شاق في التنقيب والبحث العثور على عدد من المخطوطات العربية كانت قد تسربت من الأندلس إلى بعض مكنتبات العالم الإسلامي وأوروبا . ولكن ذلك لم يكن كافياً لتغيير الفكرة الفاسدة التي تكونت لدى أجيال الغرب الذين اعتمدوا في

دراساتهم للحضارة الإسلامية في الأندلس على الرأي الأحادي الذي صاغه التعصب المقيت .

لقد امتازت حضارة المسلمين في الأندلس بعدد من الخصوصيات انفردت بها عن الحضارات الأخرى بدءاً من الحضارة السومرية مروراً بالأشورية والبابلية والفرعونية واليونانية والرومانية . هذه الخصوصيات تمثلت في :

أولاً : أن الحضارة الإسلامية في الأندلس لم تقم على عاتق فئة متميزة في المجتمع كما قامت الحضارات الأخرى . وإنما هي حضارة صنعها الإنسان على أرض الأندلس وهو الإنسان الذي نشأ أو عاش في ظل دين يدعو للعلم ويكرم العلماء ولا يفرق بين إنسان وآخر . وقد اختفى في ظل الحضارة الأندلسية رقيق الأرض الذي ظل موجوداً في ظل الحضارات السابقة والذي كان دمه وجهده وعرقه يتحول إلى مال يُصب في الخزائن الملكية أو خزائن الكهنة لتقام به النصب أو التماثيل لتمجيد ملك أو إمبراطور . وإنما كانت الحضارة الأندلسية حضارة من صنع الناس . كل الناس . الأدنى منهم والأعلى . وكانت الأموال تجمع بالعدل الصارم الذي يطبق على الجميع دون تفرقة والذي يوجه لبناء ما ينفع الناس كلهم وينشر العلم ويبسط الحماية ويوفر الترف والإبداع للجميع دون استثناء . وقد أمكن في ظل هذه الحضارة أن يصل الفلاح البسيط أو العامل المتواضع إلى أعلى المناصب في البلاط

ثانياً : أن الحضارة الإسلامية في الأندلس نمت وازدهرت في ظل المعارك المتواصلة والمستمرة سواء ضد بعض الجيوش النصرانية في الشمال الغربي أو بين ملوك الطوائف وبعضهم البعض أو ضد الثورات التي سادت البلاد خلال فترات الضعف . لقد قامت على قاعدة [يد تبني ويد تحمل السلاح] بينما كانت الحضارات الأخرى توقف كل شيء إذا نشب القتال وتتحول كل الإمكانيات المادية والبشرية إلى ميادين القتال . أما في الأندلس فلم تتوقف الحرب ولم يتوقف البناء . ويعجب الإنسان كيف تم بناء الزهراء والزاهرة ومئات المدن والصروح العملاقة في حضارة لم تضع السلاح يوماً واحداً .

ثالثاً : أن جامعات الأندلس فتحت أبوابها لكل الطلاب والطالبات من كل أوروبا ولم تجعل التعليم مقصوراً على أبناء النبلاء . بل كان بإمكان طالب العلم أن يجد المأوى والأستاذ ولم يُحرَم طالب أياً كان دينه أو مذهبه أو موطنه من فرصته رغم أن معظم الحضارات كانت تعتبر التعليم حكراً على طبقة بعينها حتى لا يحرم الريف من الأيدي العاملة . وقد وضعت جامعات الأندلس قواعد في السلوك وفي التدرج العلمي مازالت معظم جامعات العالم العريقة تأخذ به حتى الآن وهو ما قد لا يعلمه الكثيرون . وسوف يعجب أبناء الغرب اليوم لو عرفوا أن آداب المائدة وآداب الحديث وضوابط اللبس والكلام وضوابط العلاقات بين الجنسين كلها أشياء كانت تدرس في جامعات الأندلس وعلى أيدي المسلمين . يضاف إلى ذلك أخلاق الفروسية العربية التي كانت الأساس الذي قامت عليه ظاهرة الفروسية في أوروبا وهي إحدى مفاخر القرون الوسطى كما يقول ول ديورانت في موسوعته قصة الحضارة .

رابعاً : التسامح الديني العظيم فقد عاش المسلمون والمسيحيون واليهود إخوة في بلد واحد كبير . بل إن كثيرين من اليهود والمسيحيين تقلدوا أعلى المناصب وساهموا بحظ وافر في الإبداع العلمي والفلسفي ولم يفرض على اليهود ارتداء لون معين أو شارة معينة كما حدث في إيطاليا وألمانيا وغيرهما ولم يتعرضوا هم والمسيحيون للسلب والنهب والاسترقاق الذي كانت تمارسه وبصفة مستمرة القبائل نصف الهمجية المنحدرة من الشمال أو حتى في عهد قيصر الذي كان يعتبر الأندلس بقرة روما الحلوب . ولنا أن نقدر عندما نتذكر حالة اليهود والمسيحيين في أسبانيا بعد سقوط غرناطة لماذا كانوا يكون على انحسار المد الإسلامي كما قال بعض المؤرخين وخاصة عندما جاءت محكمة التفتيش وأعملت في المسيحيين الذبح والقتل والحرق وتمزيق الأشلء لمجرد التعبير عن رأي مخالف إبان حركة الإصلاح الديني التي سادت وسحقت أسبانيا وأوروبا والتي لم يسلم منها أسقف أسبانيا نفسه الذي عومل بكل الرحمة والشفقة فاكْتُفِي بسجنه في جب سحيق بسجن محكمة التفتيش لمدة سبعة عشر عاماً ولم يخرج

منه إلا جثة هامة . وسوف يقدر الإنسان دموع اليهود عندما صدر الأمر بنفيهم هم وزوجاتهم وذرايرهم من أسبانيا فيما أطلق عليه تعبير الخروج الثاني وكيف ظلوا يسيرون على الأقدام آلاف الأميال وكيف أن بعضهم باع أبناءه ليحصل على ثمن مكان على مركب تحمله إلى الشرق الإسلامي فإذا نجح في ذلك قبضت عليه سفن المسيحيين وباعته رقيقاً ليلحق بأبنائه .

لقد كانت هذه كما قلت في البداية بعض الملامح أرجو أن تحقق ما أهدف إليه من التذكير بالتواجد العربي الإسلامي في البرتغال وأنا أعلم علم اليقين أن ما يتمتع به بعض العلماء الأجانب من علم وحيدة وموضوعية سوف يساعد على تفهم بعض الإشارات التي عرضت لها دون حساسية أو دون تعصب . فتاريخ تسعة قرون شيء كثير وكبير . وحضارة المسلمين في الأندلس لم تكن حضارة عادية . وإنما كانت مرحلة من مراحل المجد الإنساني يبكي عليها الإنسان العربي والإنسان الأوروبي على السواء بكاءه على انحسار مد مستنير علم أوروبا الكثير . وبكائه على انطواء صفحة مشرقة من صفحات التاريخ ستظل على مر الزمن نموذجاً فذاً للإبداع الإنساني المتميز .

عبد الله بن خالد آل خليفة